خاتمة

"كليلة ودمنة فى الأدب العربى" هو ذلك الموضوع الذى تجردت لـــه بالبحث عنا ، محاولة فيه أن أقول شيئا بعد ما كثر الكلام فيه وتشعب . وقـــد دفعنى إلى طرقه – برغم صعوبته وكثرة المتعرضين له – تقديرى لكاتبه وتعلقـــى به منذ شرعت أتصل بالحياة الأدبية فى تراثنا . وكذلك إيمانى بأنه موضـــوع يمكن أن اضيف شيئا ، أو على الأقل أجلى منه بعض ما ظل غامضا ، ورأيت انـــه يحتاج بمحاولتى المتواضعة إلى كشف واعادة تقويـــم .

ولقد تعرضت لأول صعوبة فى البحث – وقد كانت الصعوبات كثيرة – عندما واجهنـــى ذلك الحشد الهائل من الكتب التى عرضت لابن المقفع ولآثاره . وجـــدت الأمر أشبه بالمحال عندما طالعنى أقطاب من متأدبينا ونقادنا ، وقد وقفـــوا طويلا عند "كليلة ودمنه" محللين مقومين ومدلين بآرائهم ، فكان على أن أنظـــم تلك الكتب ، وان افيد مما رآه اصحابها .

ولقد بينت فى مقدمة هذا البحث أسلوبى فى تنظيم الكتب ، وذلـــك بتقسيمها إلى سبعة اقسام : أولها متون ابن المقفع نفسه ، وقد وردت فـــى الادب الكبير والادب الصغير ورسالة الصحابة وكليلة ودمنة ، وثانيها المراجـــع القديمة التى تعرضت لابن المقفع ومن اتصل بهم فى حياته ، مثل وفيات الأعيان ومعجم الادباء وغيرهما ، وثالثها كتب المحدثين التى تناولت ابن المقفع فـــى بعض جوانب من حياته ، ومن هؤلاء المحدثين الدكتور طه حسين والدكتور شوقـــى ضيف والدكتور أحمد كمال زكى وغيرهم كثيرون ، ورابعها الكتب التى اقتصرت طـــى ابن المقفع وحده ، منها كتاب ابن المقفع : للدكتور عبد اللطيف حمزه ، وكتـــاب

" عبد الله ابن المقفع " للدكتور محمد غفراني الخراساني ، وخامسها كتب المعارضات والتقليدات لكتاب كليلة ودمنة ، وسادسها المراجع البيبليوجرافية مثل فهرست ابن النديم ، وكشف الظنون لحاجي خليفة وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان وغيرها ؛ وسابعها واخرها دوائر المعارف المختلفة وهي دائرة المعارف الإسلامية ودائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف اليهودية بالإنجليزية .

وأما عن الانتفاع بآراء الاقطاب ، فقد رأيت أن يكون من خلال منهجي الذي سرت عليه في البحث ، وقد قسمت هذا المنهج إلى أربعة فصول كبيرة توزعت في كل فصل إلى موضوعات ، وصدرت كل هذه التقسيمات بمدخل عرضت فيه للعصر الذي عاش فيه ابن المقفع — وهو القرن الثاني الهجري — وللبيئة التي رأيتها توشك أن تختلف عن غيرها من البيئات الإسلامية ، وان اتفقت معها في أمور والتقت على أشياء .

في البصرة عاش ابن المقفع أوقضى فترة شبابه إلى أن ضُرِعَ ، وفي هذا المصر صَبَّتِ الأممُ المختلفةُ حضاراتها وفكرياتها ومعتقداتها وعاداتها ، فجعلت البلد نموذجا قلقا حائرا ، كما جعلته متوثبا متطلعا . أخذ من الهند حكمتها وبجانياتها وأساطيرها وخرافاتها ، ومن الفرس نظم دولتهم القديمة ، وأساليب عيشهم المترف ، ومن اليونان منطقهم وفلسفتهم فعاش بهما واضطرب وشك حتى كاد ينكر كثيرا من المسلمات . ثم كان فيه أشياء من النبط أهل السواد الأصليين ومن انضم إليهم من شُذَّاذ الآفاق وسفلتهم ، وهؤلاء جمعوا إلى رذائل الفقر خطايا الضعف الانساني ، حتى قيل في كل مرذول انه اثر نبطي ، وحتى أضحى النبط أهل كلّ نقيصة ، مما حمل الحجاج بن يوسف الثقفي على نفيهم من بيئة تَمْتَدُّ بالأقوى وتؤمن بالأصلح .

أمام هؤلاء الأقوام وقف ابن المقفع يرصد ويحلل وينقد ويقترح ، يغذيه حصيل روحي هائل من القرآن والتوراة والانجيل ، ثم جاوز إلى الجانب الأدبي من كل كتاب ، فاصطنع أساليبه أحيانا ، واقتبس من حكاياته أحيانا أخرى . أخذ من القرآن مثلما أخذ من التوراة ، ومن الإنجيل استقى جوانب اختلطت بمذهب مانى وآراء بوذا .

وفى القمة وقف العرب ، سادة البصرة وغراتها ، وفى يدهم تجمعت الثروات بنزعات الكِبْر والتيه ، فأثاروا الأحقاد ، وأجّجوا نارَ الضغينة ، وأعطوا الفرصة لأخطر المبادىء يبثّ لها الشعوبيون ، وبخاصة الأحرار الايرانيون أو آزاد سرد بتهم ، فاندفعوا فى تيار مدمر يستهدف الإطاحة بالأسرة الحاكمة ، وتغلغلت هذه الحركة فى جميع مرافق الحياة وسبلها ، حتى أصابت دينها ولغتها وتراثها الادبى ، وعند كل هذا وقف ابن المقفع يسجل ويشارك فى الثورة ، ويسجل مشاهداته وانطباعاته واقتراحاته فى كتبه ، وبخاصة كليلة ودمنة .

كل هذا عرضت له فى المدخل فطال بعض الشيء ، وكان عذري انني لا اريد ان اثهر فى صلب بحثي موضوعات تتصل بهذه الاشياء التي وقفت عندها في المدخل . فاذا جئت الى الفصل الاول قصرته على بيئته ابن المقفع الخاصة ، حتى شبابه وطوقه ، واسهمه فى الحياة العامة مصلحا اجتماعيا ، وكان قد تعلم بجانب لغته الأصلية اللغة العربية واللغة اليونانية ، فتهيأ لأن يكون مترجما وركزت على مثاليته التى ميزت مسلكه ومعيشته وملبسه ومأكله ومقاله ، بل كذلك تضحيته وايثاره صحبه على نفسه ، ومن هذه المثالية صدر بكليلة ودمنة ، يرسم فيه للسلطان ما يجب أن يفعله بما يتفق وهذه المثالية ، كما يصور فيه المجتمع الكامل ، وقد استدل بكثير من حكم القدماء وأكثر من قوله فى هذا المجال

"وقد قال العلماء او الحكماء أو الحكيم " أو " وقد قيل " أو " وقد قالوا "

ولعل هذه المثالية — إن لم تكن شعوبيته — هي التي حفزته إلى أن يصنف " كليلة ودمنة " في بداية حياته العملية ، فناقش واعترض ووصف ، وعبر خلال ذلك عن نفسه وقلقه وعن تلك الحيرة التي عاشتها بيئته . ولما لم يلتفت أحد إلى الكتاب ، وغبرت سنون ، واستفحل سلطان المنصور لخص ما أورده في رسالة سماها " رسالة الصحابة " أبانت عما ستره من هدف في " كليلة ودمنة " وفي كتبه الاخرى المؤلفة أو المترجمة . إن ما ترجمه كان بعثا لحضارة إيران في بيئة عربية طالما سخرت منه ومن الأحرار ، وما جمعه من هنا وهناك وكان ترجمانا عن الإحساس بالفروق العنصرية . فالملك العربيّ قام على غير أساس ، والملك الفارسي ذهب بغير وجه حق ، وإذن فلا بد من أن يتم التبادل ، فيموت الحيّ ويبعث الميت ، وجاءت ساعة الصفر بميلاد رسالة الصحابة " فكانت تقريرا لكليلة ودمنة ، وكان فيها نهاية كاتبنا .

وأما الفصل الثاني فقد خصصته لبيئة ابن المقفع الفنية ، أهي الإطار الذي دار فيه بكتابه " كليلة ودمنة " فبدأت بالبحث عن الجنس الأدبي للكتاب ، ومن هذا المنطلق عرضت للقصة في العالم عرضا سريعا ، وانتهيت الى العرب ، فاذا هم كل الشعوب قاصون ، ولقصصهم طابع وهدف ، وكان وقوف القرآن عندها استجابة لحاجة العرب القدماء إلى التعامل مع هذا الفن ، قال سبحانه وتعالى " نحن نقصّ عليك أحسن القصص "

على ان هذا ليس هو ما اردت الوقوف عنده ، وانما اردت ان اقول ان العرب عرفوا القصة الخرافية التي تحكى بلسان الحيوان ، وقد تردد كثير

منها فى أمثالهم التى سجلها الميدانى وابو هلال العسكرى، وأبو عبيد البكرى وغيرهم ، وفى القرآن الكريم جانب من هذا القصص جاء على لسان الهدهد والنملة والبقرة والحية وغيرها ، وأكد وجود الفابولا فى العصر الجاهلى . وقد هذا الجنس الفنى اجتمعت آداب العالم فى خرافات الاغريق والمصريين والهند وفارس والعرب ، حتى جاء ابن المقفع وجعل لها إطارا فنيا حدد مظاهره ، وأصبح فنا أدبيا كان منه كليلة ودمنة العربى الإسلامى ، خلافا لما قيل من أنه ترجمة عن الأصل الفارسى المأخوذ من السنسكريتية . وهكذا ضمت مع الخرافة فى الأدبين الهندى والفارسى ، ووضعت فى نطاقها " كليلة ودمنة " وأثبت أن الكتاب فى الواقع ابن شرعى للبصرة ، وجزء منها لا ينفصل عنها ، بما يحمله من ملامح ومن استجابة لمؤثرات انصهرت فى بوتقة هائلة تتسع لشتى المتناقضات ولاكثر الحكايات .

وأما الفصل الثالث فقد جعلت عنوانه " كتاب كليلة ودمنة متلقيا " وكان معناه أن أحلل القصر التحليلَ الذى يردّ كلّ شىء إلى أصله ، وبانَ من هنا لماذا أطلت الوقوف عند آثار الهند وفارس واليونان والعرب وغيرهم . والكتاب فى الحقيقة فيه أجواء هندية وأعلام هندية وزهد هندى ، وفيه لمحات من تاريخهم وأسماء لبعض ملوكهم فى عدلهم وفى ظلمهم . وفى الكتاب أيضا أثر إيرانى حمل إليه نظام ساسان واكاسرتهم ، وسلوكهم فى معيشتهم الحضارية المترفة ، وقد كثر استشهاد الكاتب بآراء علمائهم وحكمائهم . ثم فى الكتاب أثر المنطق اليونانى وفلسفته ، وآية ذلك عملية سرد القصص فى أسلوب رياضى منطقى خفف من جفافه نضارة العبارات المقفية الخالية من حوشى الكلام ، وحلاها خياله الحى الذى رسم عوالم متنوعة ملونة ، طافت بنا كلّ مطاف . وفى الكتاب كذلك أثر أسود

مظلم هو للنمط ، لحمته فقر وسداه رذائل هذا الفقر وخطاياه . وقد قست البصرة على هؤلاء ، وظهرت هذه القسوة في "كليلة ودمنة" ممثلة في الرذائل وساعية بها المرأة ساعية بها اذا غدرت أو اذا احتالت وكادت .

وقبل هذا كله او بعده ظهر في قصص الكتاب اثر عربي ، وذلك في صورة امثال وحكم مستمدة بنصها من الحياة العربية الجاهلية ، ومن خرافات وجد اصلها في حكايات الاولين ، فوجد فيها ابن المقفع منهلا ثرا يستقي منه .

واما الجوانب الدينية في الكتاب فاظهرها اثر اسلامي ، يتمثل في استمداد المؤلف اشياء من القرآن الكريم ، ولقد بينت انه اخذ شيئا من حيوانه بجانب قيمه والفاظه واساليبه وتشريعاته وما يجري هذا المجرى . واما التوراة فما فتئت تدل من قصص الكتاب حتى تكاد تغطي ابوابا كاملة . ولقد وجد ابن المقفع فيها ما يعينه على تصوير تلقضياته وبطلان الحياة والناس فيها ، وليس اقرب الى هذا كله من امثال سليمان ومزامير داود الباكية اليائسة واقوال جامعة المتشائمة التي تستحضر اليأس دفعة واحدة امام الانسان وليس فيما يأخذه الكاتب عن التوراة انتقاص لبلاغة القرآن وقدره ، ولكن ذلك يتفق مع موقفه هو من دين دان به بعد ان كبر ، في حين طال اتصاله باليهودية والمسيحية ، وكان لجوؤه الى التوراة من هنا اكثر منه الى القرآن . واما المسيحية فقد ظهرت في قصص "كليلة ودمنة" متوارية خلف مانويته مختلطة ببوذيته ، ونجم عنها جميعا نسك دعا اليه ابن المقفع في قصصه ، ولكن التربة العربية الاسلامية لفظت ما دعا اليه لانه جسم غريب على تعاليم الاسلام .

وسادت قصص الكتاب نزعة جبرية حاولت ان اردها للآثار الدينية كلها ، وترددت فيها بين الاسلام والمسيحية واليهودية ، ورأيت انها نزعة تتنافى مع

نزعات الموالى الذين كان شهم ابن المقفع ،وكانوا يرفضون الجبرية التى يسرج لها ذوو السلطان حفاظا على سلطانهم • ولئن كان هناك من يحمل من الاسلام هذه النزعة مؤكدا حرية الانسان ، فسوف يظل للمسيحية واليهودية بل ولغيرهما من العقائد البوذية دور فى ابرازها • ومع ذلك فلماذا تنسى منطق الخرافة نفسه ؟ ان الحكايات الخرافية بطبيعتها تقوم على التسليم بالجبرية • واذن فهى نابعة من الاديان ومن المنطق الفنى للقابولات •

واذ أشعر انى وفيت هذه النقطة اصل الى نقطة أخرى ،أقارن فيها بين كتاب كليلة ودمنة أول كتاب وضعه ابن المقفع ،وآخر رسالة هى رسالة الصحابة فأجد ان مبادىء الرسالة هى ذاتها التى انطلق بها ابن المقفع حيوانه فى النقد والنقض والاصلاح والانجاح ، مع ملاحظة تضمين الكاتب العبارات ذاتها التى وردت فى اول كتبه رسالته اخر ما كتب ، وأستعير لهذا التفسير عنوانا من دليلى " الحياة الادبية في البصرة " حيث يقول مؤلفه الدكتور احمد كمال زكى " فكليلة ودمنة معادل فنى لرسالة الصحابة ، فما ورد فى هذه الرسالة تقريرا مباشرا وجد من قبل فى كليلة ودمنة تصويرا ورمزا " وهذه الى جانب ما تقرره تعطينى بعض الحق فى ان اجعلها واحدا من الادلة على وضع ابن المقفع للكتاب بصورته التى تفرد بها •

ولم يفتنى فى هذا الفصل ان اتعرض لما ثار حول كليلة ودمنة وبعض الكتب الهندية ولا سيما كتاب البنشتنترا أو الفصول الخمسة التى قيل انها اصل كليلة ودمنة برمته ، ومن المعارضة نفيت الادعاء بأن كتابنا ترجم عن الفارسية المأخوذة عن السنسكريتية ، فالنسختان لا تتفقان الا فى هاوين الفصول الخمسة للبنشتنترا ، وبعدها تختلف مضموناتها وتفصيلاتها اختلافا كليا ، فضلا عن

وجود قصص فى البنش تنترا خلت منها كليله ودمنه ، ووجود قصص فى كليله ودمنه لاتوجد فى البنش تنترا ، مما يثبت اخذ ابن المقفع قصصه من انواه غير البصره ، وكان مما ابقاه هذه المضامين التى اشترك فيها مع بنش تنترا وهى : باب الاسد والثور ، والحمامه المطوقه ، واليعقوبان ، والقرد والغيلم ، والناسك وابن عرس ، ونقلت كليله ودمنه من خرافتين هما " الحمار فى جلد الفهد " وهى القصه الاولى فى الكتاب الثالث من بنش تنترا ، والقصه الثانيه هى الحلاق الذى قتل النساك من الكتاب الخامس من بنش تنترا — ثم عرضت للخرافه الفرنسيه المتأثره بكليله ودمنه وعرضت للكتاب فى الاداب العالميه وترجماتها لهذا الكتاب واثبت هذه الترجمات قديمها وحديثها فى رسم تفصيلى ، وذلك كله يؤكد مضامين كليله ودمنه واثره فى الاداب العالميه .

واما الفصل الرابع والاخير — وهو اطول الفصول — فقد عقدته لابين امتدادات كليله ودمنه ، ولهذا سميته " كليله ودمنه معطيا " ، وانا اعترف انه فصل يغلب عليه التسجيل اكثر من التحليل ، ولا أظن الا ان طبيعه البحث هى التى دفعتنى الى ذلك دفعا ، وحاولت — مع ذلك — ان اناقش النقاط التى شعرت انها تحتاج الى مناقشه والاتجاه التسجيلى على اى حال مما تتسم به الدراسه التقارنيه عاده ، والحقيقه ان كتاب كليله ودمنه " هو النموذج الحى للمقارنين الذين يبحثون عن الظاهره عندما تكون متلقيه وعنها عندما تكون معطيه تفيض بنورها على العالم ، ويكون لها امتدادات تؤثر فى تيار الادب العالمى . فليس عجيبا ان يكون الكتاب مناط ستين لغه عالميه ، حيث ترجم وترجم ولا يزال يترجم الى الآن . وحيث قلد وقلد ولا يزال يقلد الى الآن ، واحسب انه قد آن الاوان لاعاده النظر فى تراثنا ، ولا نأخذه كما اعتاد اجدادنا أن يأخذوه وانما نعيد فيه النظر ونطرحه على وسائل